

# الحياة في اللغة العربية

الأستاذ إلياس قنصل "الأرمينية"

- 1 -

شكلية خلاصتها إضافة زوائد على الكلمة أو تغيير آخرها .

وهذا التحوير يكبر الكلمة في « المين » فقط .  
وما هكذا اللغة العربية .

ان اللغة العربية حين تود ان تضع الكلمة في قالب المبالغة تعمد الى « الحياة البشرية » منتبها منها ما يثبت في الكلمة روح هذه الحياة .

واترك الموضوع قليلا على ان اعود اليه بعد سطور .

ان الرجل الذي ينعم بميزات الرجل لا يستطيع ان ينال من تحديقك اليه ما ينال الرجل الذي شامت الطبيعة ان تضع فيه بعض ميزات المرأة .

انك تمر بالرجل « العادي » فلا تحفل به .

ولكنك اذا مررت برجل قد برز نهاده — مثلا — فلا يسمعك الا التفكير به قليلا او كثيرا لان بروز النهدين من خصائص المرأة لا من خصائص الرجل .

وما نقوله عن الرجل نقوله عن المرأة .

ولا نمنا بشمورك ازاء هذا التجاوز او ذاك على الحدود المرسومة لاحد الجنسين : ما نشير اليه هو ان هذا التجاوز يلفت نظرك .

وقد ادركت اللغة العربية هذه الظاهرة فطبقتها على صيغة المبالغة .

تختلف اللغة العربية من غيرها من اللغات بأن « الحياة » التي فيها حياة خلقة مبدعة ذات عبقرية خاصة . وفي الوقت الذي نجد بقية اللغات أدوات للتعبير متى بلغت بلغت غايتها القصوى وانتهت مهمتها نجد ان الضاد لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد مدنها الى اكثر من ذلك ليتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء : فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء .

ولو احببنا ان نضع للامر مثلا بسيطا يقربه الى الاذهان لاستطعنا القول ان بقية اللغات كالساعات العادية تضبط لك الوقت اقرب ما يكون الى الدقة ، اما اللغة العربية فكالساعة الذهبية التي لا يمكن الا ان تكون مثال الدقة في ضبط الوقت لان معدنها يحمل صانعها على مراعاة قيمتها وتوفير الانسجام بين آلاتها الداخلية وغلافها الثمين — دفعة واحدة — آلة لمعرفة الوقت بالدقة المتناهية واداة للزينة تلفت الانتظار ورصيد مادي يحتفظ بقيمته الابدية .

وياتيك البرهان في صيغة من صيغها العديدة :

« المبالغة » في أبسط صورها هي تضخيم الشيء بحيث يتوجه اليه الانتباه وقد حلت اللغات الاخرى هذه المشكلة — اذا جاز لنا ان نسميها مشكلة — بطريقة

فإذا شامت أن تصف رجلاً كثير الرحلات قالت  
عنه انه « رحالة » .

إنها تقدمه لك وقد لحقت به التاء التي كان من  
حقها أن تلحق بالكلمة المؤنثة . جعلت ذلك لتلفت نظرك  
إلى صلة المبالغة فيه .

وإذا وصلت لك رجلاً واسع العلم قالت عنه انه  
علامة .  
وهكذا .

أن اللغة العربية في عبقريتها لا تكتفي بالطريقة  
الشكلية بإضافة التاء إلى الكلمة بل تمهد كذلك إلى  
المعنى فتغير صفته وتبلا « عينيك وخاطرك » في نفس  
الوقت .

أن خصائص التانيث في الكلمة هي الوجه الآخر  
الذي يضع أمام « الفكر » صورة صادقة من المبالغة في  
حين أن إضافة الحرف — التاء — وتشديد عين الكلمة  
هي الوجه الأول الذي يضع أمام « العين » الصورة  
المطلوبة .

وأنت تنتقل بالمبالغة من « العين » إلى « الفكر »  
ليتم المقصود من التحوير لتستطيع أن تلم أوسع الآفاق  
بالمبالغة المتوخاة من التغيير .

وما ينطبق على الكلمات المذكورة ينطبق على  
الكلمات المؤنثة ولكن بوسيلة مكسبة .

أن صيغة المبالغة في الأولى هي الحاق علامة  
التانيث بها .

فمن الطبيعي والمنطقي أن تكون المبالغة في  
الكلمات المؤنثة حذاف ملامات التانيث منها .

وإذا بالمرأة التي تصون نفسها امرأة « مصونة »  
— لا امرأة مصونة — . وإذا الحرب التي لا تبقى ولا  
تذر الحرب الفروس — لا الحرب الفروسة — .

أن هذا التغيير أو هذا القلب يجعل عينيك  
تلتفت إلى ما أريد من المبالغة ، ويجعل عقلك يمتلئ  
بالصورة التي وضعت لها .

أن تاء علامة ورحالة وما إليهما هي بروز النهدين  
في الرجل .

وإن حذف تاء التانيث من مصونة وفروسة وما  
إليهما هي اللحية في ذن المرأة .

وليعذرنا الجنسان — اللطيف والغشن — لما  
أردنا إلا تقريب القضية إلى الأذهان .

أن لغتنا تمتاز كما أشرنا بهذه النفحة من الحياة  
التي تطل من تراكيبيها وصيفها ومشتقاتها ومن كلماتها  
أيضا . وهذا سر من أسرار عظمتها وجبروتها .

لقد حاربها الطفافة في مختلف مهودهم وحاولوا  
أن يقضوا عليها .

ثم .. ذهب الطنأة وظلت لغة المضاد — تزود  
القومية العربية بالقوة والجمال والخلود .

— 2 —

الحياة في اللغة العربية حياة خلاقة مبدعة ذات  
عبقرية خاصة — كما أشرنا سابقا — وهي لا تكتفي  
بمسيرة التطورات المستحدثة — كما تفعل بقية اللغات  
— بل يجد الباحث فيها « حركة بشرية » في تعاملها .  
فكانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه المواطنس  
والأحاسيس .

ومن أبرز الميزات في اللغة العربية أن كلماتها تنعم  
بهذه الحياة وبهذه الحركة التي نصف في الوقت الذي  
نجد الكلمات في سائر اللغات أدوات جامدة لا يدب  
فيها شيء من الحياة إلا بعد أن تجتمع طائفة منها إلى  
بعضها وتؤلف عبارة .

كتبت فئة من المتبحرين في علم اللغة أن الكلمات  
العربية ذات أصول ثابتة تنفرع منها المعاني المتقاربة  
— مثلا النون والباء إذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف  
معاني البروز والنبو — فأنظر إلى نموع هذا الجذر :

نبت = برز من الأرض .

نبط = أخرج ماء البئر

نبيع = خرج من المين

نبيع = خرج وظهر

نبيق = خرج وظهر

نبك = ارتفع

إلى آخر ما هنالك من الكلمات التي تتشابه في  
الأصل .

هذا ما كتبه فريق من العلماء وقد اتخذوا كثيرا  
من الأصول أدلة واضحة صريحة .

واجتهادنا الوضيع في هذا الصدد ان اللغة العربية في معبريتها لم تكتف بهذا « المنطق » الذي هو في حد ذاته قاعدة بل امتدت الى ابعد من ذلك . وما هي ظاهرة جديدة من ظواهر حياتها وحركتها حتى في الكلمات :

ان اللغة العربية « تتساهل » اسمى ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الكريم الشهم ازاء صاحبه تماما .

خذ مثلا كلمة غضروف :

ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحركات في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة — وفي السرعة الزلل .

لماذا تفعل اللغة العربية لتتلافى هذا الامر ؟ انها تتساهل معك وتقول :

اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فاللفظ كلمة « غرضوف » فانها هي نفسها .

وهكذا تترك لك اللغة المجال واسعا حتى اذا استثقلت اجتماع الغين والضاد وضعت بينهما الراء او اذا انسابت الكلمة من فمك سريعة الانفصال عن مكانها في العبارة امنت الزلل الذي يمكن ان تقع فيه من تناسق الحركات في الكلمة .

ان اللغة العربية لا تمنعت الى الدرجة التي تشمر بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى ماذا انت من « نبالة عواطفها » ومن « شهامة اخلاقها » اسير لا تكاد تملك من امرك شيئا .

وهاك مثلا ثانيا :

« القاف » حرف حلقى يصعب لفظه على البعض ولا بد من لفظه على من يتكلم الضاد . ولكن اللغسة العربية لا تنزمت بل تتساهل كماداتها وتقدم لك برهانا جديدا على « طيب عنصرها » .

اذا لم يكن من الهين عليك ان تقول :

دق : ومعناها كسر .

فلا بأس قل :

دك : ومعناها هدم .

ان اللفظتين تتقاربان في الاداء بحيث يمكنك ان تشيب الثانية مناب الاولى — هذا اذا كنت كما اشرنا ترى من الصعب التلفظ بالقاف .

وهذا التساهل من طبع اللغة العربية ولا يسري على كلمة مفردة بل على كلمات كثيرة .

وليس من عمل المصدف ان تكون لفظة « ريك » قريبة جدا من لفظة « رقيق » .

وليس من عمل المصدف ان تكون كلمة « قط » مرادفة لكلمة « قد » و « تت » .

وليس من عمل المصدف ان تكون « لفضى » و « لظلف » بمعنى واحد تقريبا .

واذا لم تشأ ان تقنع بهذا التساهل الفريد بين جميع لغات العالم احضناك الى الدليل الذي ما يصده دليل على ان التساهل هو من طبع هذه اللغة .

لقد نوعت اللغة الحركات على كثير من الكلمات حتى اذا لفظتها — على غير يقين من شكلها — لم تكن فيها على خطأ .

البصل البري اسمه المنصل ( بضم الصاد ) والمنصل ( بفتح الصاد ) والمنصلا ( بضم الصاد ) والمنصلا ( بفتح الصاد ) .

والاربعة الفظها كما يمن على بالك بضم الباء او فتحها او كسرهما .

وهذا التنوع والتشكيل في المصدر :

فاس غوصا وغياصا وغياصة ومغاصا

اتريد ارحب من هذا الميدان ؟

اتريد اكرم من هذا الكرم ؟

لا . لا

اننا نحن الذين لم نعرف قيمة هذه اللغة الفريدة من نوعها .

اننا نحن الذين لم نجعل حتى الآن الا القليل القليل من اسرارها .

اننا نحن الذين لم ندرك ما في كلماتها وحروفها من حياة وما في تراكيبيها من منطق وشعور .